العابد

الطبائع الأربع

طبيعة العبادة ، وطبيعة التفكير ، وطبيعة التعبير الجميل ، وطبيعة العمل والحركة.

هذه طباع أربع تتفرق في الناس ، قلَّما تجتمع في إنسان واحد على قوة واحدة، فإذا اجتمعت معاً فواحدة منهن تغلب الصفات الأخرى لا شك ، وتلحق الأخريات بها في القوة والدرجة على شيء من التفات .

وطبيعة العبادة : تدعونا إلى الاتصال بأسرار الكون والتعاطف والتآلف بينا وبينها : تدعونا إلى الحلول من الكون في أسرة كبيرة .

وطبيعة التفكير : تثير في نفوسنا مَلَكَات الكشف والاستقصاء : تدعونا إلى الحلول من الكون في معمل كبير .

وطبيعة التعبير الجميل : تشعل النار المقدسة في أسرارنا ، فتصهر معادن الجمال من هذه الدنيا وتفرغها في قوالب حسناء من صنع مَلَكاتنا وألسنتنا ، أو صنع مَلَكاتنا وأيدينا أو صنع مَلَكاتنا وأعضائنا ، تدعونا إلى الحلول من الكون في متحف كبير . وطبيعة العمل والحركة : تعلمنا كيف تتأثر بدوافع الكون ، وكيف نؤثر فيها ، وتجذبنا إليها فنستمد منها القدرة التي تجذبها إلينا : تدعونا إلى الحلول من الكون في ميدان صراع ، وميدان سباق .

وقلما تشعر بالكون بيتاً لأسرة ، ومعملاً لباحث ، ومتحف فن ، وميدان سباق في وقت واحد . إنما هي حالة من هذه الحالات تقطع سائر الحالات ، وقد تلحقها بها إلحاق التابع بالمتبوع ، والمساعد بالعامل الأصيل .

محمد بن عبد الله ﷺ كانت فيه هذه الطبائع جميعاً على نحو ظاهر في كل طبيعة: كان عابداً ، ومفكراً ، وقائلاً بليغاً ، وعاملاً يغير الدنيا بعمله . ولكنه ﷺ كان عابداً قبل كل شيء ، ومن أجل العبادة قبل كل شيء كان تفكيره وقوله وعمله، وكل طبيعة فيه . وتهيأ للعبادة بميراثه ونشأته وتكوينه . فولد في بيت خدمة الكعبة والتقوى وتقدمه آباء يؤمنون ويوفون بإيمانهم ،ويعتقدون ويخلصون فيما اعتقدوه [1]

ونشا يتيماً من طفولته فانطوى على نفسه ، وتعوَّد التأمل والجد والبعد عن عبث الصغار ، والنظر إلى ما حوله بعين الناقد المترفع عن الدنايا المائل إلى الطهر واستقامة الضمير وتكوَّن في بنيته عابداً من صباه .

قيل : أنه في الثانية أو الثالثة من عمره قد أدركته حالة يختلف شُرَّاح التاريخ في تفسيرها ، ويرويها من سمعوا بها على روايات مختلف لا ندري ما هو الواقع الصحيح منها ، ويتعجَّل بعض المؤرخين الأوربيين فيحسبها نوعاً من الصَرَع على غير سند علمي أو تاريخي مُحَقَّق يستند إليه .

كل ما يمكن أن نجزم به من هذه الحالة أو من غيرها أن محمداً ﷺ قد تكوَّن ليلتقي الوحي الإلهي ،وأن لهذا التكوين استعداداً لا بد أن يلحظ من أوائل صباه [2] لأن

---

(1) لم يرث الرسول العبادة من أهله وعشيرته وإلا كان على دينهم فعبد الأصنام والأوثان كما كانوا يعبدون ، ولما اعتزلهم وما يعبدون وتحنَّث في غار حراء ، والله تعالى هو الذي عصمه من عبادة أهله وقومه ، وحبب إليه الخلاء كما جاء في الصحيحين عن السيدة عائشة : " كَانَ أَوَّلَ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاءُ فَكَانَ يَلْحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ قَالَ وَالتَّحَنُّثُ التَّعَبُّدُ " [متفق عليه]

(2) سنناقش موضوع شقِّ صدر النبي ﷺ في التعليق الختامي بشيء من التفصيل .

البنية الحية لن تتهيأ له في أيام ولا في شهر ولا في سنوات ، ولن تستطيعه إلا إذا تمَّت استعدادها له والمولود في صلب أبيه ولا نقول في المهد أو في الرضاع . فمن الأقوال المتواترة : أنه كان ﷺ إذا نزل عليه الوحي نكس رأسه [١] وكرب لذلك وتغير وجهه وأجهد حتى أنه يسقط منه مثل اللؤلؤ في اليوم الشاتي [٢] وسمع عند وجهه كدوي النحل [٣] وقد يصيبه الصداع فيغطي رأسه بالحناء [٤] وقد شاب فقال : " شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا " [حسنه الترمذي] وعدَّد حين سئل عن أخواتها سوراً أخرى من القرآن الكريم . [٥]

وليس هذا من طبيعة كل بنية إنسانية ، إنما هو طبيعة البنية التي تتلقى وحياً ، وتستوعب سراً وتهتز لنبأ عظيم .

صفة العابد

وكانت أوصافه في غير حالة الوحي توافق الاستعداد الذي يرشحه لتلتقي الوحي والنبوة فكان حساً كله ، وحياة كله . يراه من ينظر إليه فيرى فؤاداً يقظاً يتنبه لكل

---

(1) من الأحاديث التي وردت في ذلك : عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ : " كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَسَلَّمَ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ نَكَسَ رَأْسَهُ وَنَكَسَ أَصْحَابُهُ رُءُوسَهُمْ فَلَمَّا أُتْلِيَ عَنْهُ رَفَعَ رَأْسَهُ " [صحيح مسلم]

(2) عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُرِبَ لِذَلِكَ وَتَرَبَّدَ لَهُ وَجْهُهُ " [صحيح مسلم] وقَالَتْ عَائِشَةُ : " كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا فَوَاللَّهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسَهُ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنْ الْبُرَحَاءِ حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِنْ الْعَرَقِ مِثْلُ الْجُمَانِ وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ " [متفق عليه] .

(3) عن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أنه قال : " كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ سُمِعَ عِنْدَ وَجْهِهِ كَدَوِيِّ النَّحْلِ " [ضعيف الترمذي] .

(4) عن أبي هريرة قال : " كان إذا نزل عليه الوحيُ صُدِعَ فيُغَلِّفُ رأسَهُ بالحنَّاءِ " [حديث ضعيف أخرجه البزار والطبراني]

(5) أخواتها هن : " الواقعةُ والمرسلاتُ وعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَت " .

خالجة نفسية ، وكل نبأة خفية . يسرع في مشيته ويلتفت فيلتفت بكل جسمه ، ويشير فيشير بكل كفه [١] ويفكر فلا يزال يطرق إلى الأرض أو يرفع بصره إلى السماء [٢] ويدعو فيرفع يديه حتى يرى بياض أبطيه [٣] ويغضب فتحمر عيناه ووجنتاه [٤] ويمتلئ عرق جبينه وينام وقلبه يقظ لا ينام [٥] : حس مرهف يقرِّب إليه ما وراء الستار ، ويوقظ سريرته لأخفى البواطن ، ويجعله أبداً في حالة قريبة من حالة الوحي حيثما هبط الوحي عليه . [٦]

---

(1) عن علي بن أبي طالب قال : " كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ ضخمَ الرَّأسِ عظيمَ العَينَينِ هدبَ الأشفارِ مُشربَ العينِ بحُمرةٍ كثَّ اللِّحيةِ أزهرَ اللَّونِ إذا مشَى تَكَفَّأَ كأنَّما يمشي في صعدٍ وإذا التفتَ التفتَ جميعًا شَثنَ الكفَّينِ والقدمَينِ [حديث صحيح رواه أحمد]

(2)عن البراء بن عازب قالَ : " خَرَجْنا مع النبيِّ ﷺ في جَنازةِ رجلٍ من الأنصارِ ، فانْتَهَيْنا إلى القبرِ ولَمَّا يُلْحَدْ ، فجلس رسولُ اللهِ ﷺ مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ ، وجَلَسْنَا حَوْلَهُ ، وكأنَّ على رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ، وفي يَدِهِ عودٌ يَنْكُتُ في الأرضِ ، فجعل يَنْظُرُ إلى السماءِ ، ويَنْظُرُ إلى الأرضِ ، وجعل يرفعُ بَصَرَهُ ويَخْفِضُهُ ، ثلاثًا ، فقال : اسْتَعِيذُوا باللهِ من عذابِ القَبْرِ ، مَرَّتَيْنِ ، أو ثلاثًا " [حديث صحيح رواه أحمد والحاكم]

(3) قَالَ ﷺ : " أَمَّا بَعدُ ، فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ منْكُمْ عَلَى العَمَلِ مِمَّا وَلاَّنِي اللهُ ، فَيَأْتِي فَيَقُولُ : هَذَا لَكُمْ وَهَذا هَدِيَّةٌ أُهْدِيتْ إِلَيَّ ، أفَلا جَلَسَ في بيت أبِيهِ أَوْ أُمِّهِ حَتَّى تَأتِيَهُ هَدِيَّتُهُ إِنْ كَانَ صَادِقاً ، واللهِ لا يَأخُذُ أحَدٌ مِنْكُمْ شَيئاً بِغَيرِ حَقِّهِ إلاَّ لَقِيَ اللهَ تَعَالَى ، يَحْمِلُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَلا أعْرِفَنَّ أحَداً مِنْكُمْ لَقِيَ اللهَ يَحْمِلُ بَعيراً لَهُ رُغَاءٌ ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ " ثُمَّ رفع يديهِ حَتَّى رُؤِيَ بَيَاضُ إِبْطَيْهِ ، فَقَالَ : " اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ " ثلاثاً " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] .

(4) عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ اللُّقَطَةِ فَقَالَ عَرِّفْهَا سَنَةً ثُمَّ اعْرِفْ وِكَاءَهَا وَعِفَاصَهَا ثُمَّ اسْتَنْفِقْ بِهَا فَإِنْ جَاءَ رَبُّهَا فَأَدِّهَا إِلَيْهِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَضَالَّةُ الْغَنَمِ قَالَ خُذْهَا فَإِنَّمَا هِيَ لَكَ أَوْ لِأَخِيكَ أَوْ لِلذِّئْبِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَضَالَّةُ الْإِبِلِ قَالَ فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى احْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ أَوْ احْمَرَّ وَجْهُهُ ثُمَّ قَالَ مَا لَكَ وَلَهَا مَعَهَا حِذَاؤُهَا وَسِقَاؤُهَا حَتَّى يَلْقَاهَا رَبُّهَا " [متفق عليه]

(5) قَالَ سُفْيَانُ : " بَلَغَنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ " [صحيح مسلم وغيره]

(6)" قُلْنَا لِعَمْرٍو : إِنَّ نَاسًا يَقُولُونَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَنَامُ عَيْنُهُ ، وَلا يَنَامُ قَلْبُهُ ، قَالَ عَمْرٌو : سَمِعْتُ عُبَيْدَ بْنَ عُمَيْرٍ يَقُولُ : رُؤْيَا الأَنْبِيَاءِ وَحْىٌ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] [صحيح البخاري]

هذه صفة عابد يفكر ويعبر ويعمل ، وليست بصفة عابد ينقطع للعبادة أو ينقطع للتفكير ، أو يعمل كما يعمل بعض العُبَّاد الذين هزلت بنيتهم الجسدية فلم يبق لهم إلا التفرغ للعبادة .

كانت عبادة محمد ﷺ خلواً بالنفس إلى حين ، أو عجباً من بدائع الكون التي ألفها الناس ، لأنهم لم يوهب لهم في أبصارهم وبصائرهم تلك النظرة الجديدة التي ترى كل شيء كأنه في خلق جديد .

ما أعظم دهشة الناظر أن يرى الشمس قد خلقت اليوم أمام عينيه دهشة لا تعدلها دهشة .

وهكذا كانت عبادة محمد ﷺ : عجب من بدائع الكون في كل نظرة كأنه يراها لأول مرة ، وتفكير في الخلق ينتهي إلى الإيمان لأنه يبدأ بالعجب ، ولا يزال أبداً بين العجب والإيمان .

وإن محمداً ﷺ باعث الإيمان إلى القلوب . لقد كان يجدد إيمانه كما يجدد عجبه كل يوم [1] وكان يدعو الله فيقول : " يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ " [صحيح الترمذي] وقيل له في ذلك فقال : " إنَّهُ لَيسَ آدميٌّ إلا وقلبُهُ بينَ أصبُعَيْنِ من أصابعِ اللَّهِ ، فمَن شاءَ أقامَ ، ومن شاءَ أزاغَ " [صحيح الترمذي] حركة متجددة في الحس وفي الفكر وفي الضمير .

فلا انقطاع عن الحس للعبادة كل الانقطاع . ولا انقطاع عن الحس للتفكير كل انقطاع .

---

(1) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " جدِّدُوا إيمانَكمْ قِيلَ :يا رسولَ اللهِ وكيفَ نُجَدِّدُ إيمانَنا ؟ قال:أكْثِرُوا من قولِ لا إلهَ إلا اللهُ " [رواه أحمد والحاكم ، ضعفه الألباني وصححه الهيثمى]

وإنما هو تفكير من ينتظره العمل ، وليس بتفكير من ترك العمل ليدخل في الفروض ومذاهب الاحتمال والتشكيك : ثلث أيامه لربه وثلثها لأهله ،وثلثها لنفسه[1] وما كان في فراغه لنفسه ولا لأهله شيء يخرجه من معنى عبادة الله ، والاتصال بالله ، على نحو من التعميم .

بهره الجمال من صباه : جمال الشمس والقمر والنهار والليل والحدائق والصحراء، وجمال الوجوه التي يلمح عليها الحسن فيطلب عندها الخير . إنما هو الخير على كل حال ما قد طلب من الجمال ، وإنما جمال الله هو الذي قد كان يدعوه إليه ، كلما نظر إلى خلق جميل . فكَّر في الخَلْق فآمن بالخالق . [2]

واستقر هنالك لا يتقدم ولا يتأخر فقال : " إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ الأَرْضَ ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ اللَّهَ ؟ فَإِذَا أَحَسَّ أَحَدُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ وَبِرُسُلِهِ " [رواه أحمد]

تلك هي نهاية التفكير التي ينتهي إليها عقل مستقيم خُلِقَ لعبادة عامل ، وتعليم الناس عبادة وعملاً ، ولم يُخْلَق ليدخل في الفروض ، وينقلب بين الشكوك .

---

(1) قَالَ الْحُسَيْنُ : سَأَلْتُ أَبِي عَنْ دُخُولِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: كَانَ دُخُولُهُ لِنَفْسِهِ مَأْذُونًا لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَكَانَ إِذَا أَوَى إِلَى مَنْزِلِهِ جَزَّأَ دُخُولَهُ ثَلاَثَةَ أَجْزَاءٍ ، جُزْءًا لله ، وَجُزْءًا لأَهْلِهِ ، وَجُزْءًا لِنَفْسِهِ ، ثُمَّ جَزَّأَ جُزْأَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ فَيَرُدُّ ذَلِكَ عَلَى الْعَامَّةِ بِالْخَاصَّةِ وَلاَ يَدَّخِرُ عَنْهُمْ شَيْئًا " [ضعيف البيهقي]

(2) إن تفكر النبي ﷺفي الخلق لم يهده إلى الخالق إنما الذي هداه للخالق هو الخالق نفسه والقرآن الكريم يصرح بهذا يقول تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى ﴾[الضحى : ٧] بيان لنعمة أخرى أنعم سبحانه بها على نبيه ﷺ: والمراد بالضلال هنا الحيرة في الوصول إلى الحق ، والغفلة عما أوحاه الله تعالى إليه بعد ذلك من قرآن كريم . وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى :٥٢] راجع تفسير سورة " الضحى " د. سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " .

وإنا لنسأل مع هذا : إلى أين انتهى المفكرون الذين غرقوا في شكوكهم وذهبوا بها إلى أبعد ما تفرضه الفروض ؟

إلى أين انتهى " كانت " Kant إمام المفكرين في هذا الباب بين فلاسفة العصر الحديث ، إن لم نقل الحديث والقديم ؟

انتهى إلى أن النفس نفسان ، والوجود وجودان : نفس حسية ، ونفس حقيقية ، ووجود محسوس ووجود حق هو ذات الوجود . النفس الحقيقية تدرك الوجود الحقيقي عندما ترجع إلى قرارها ، ثم لا تتخطى بإدراكها عالم الباطن إلى عالم المحسوسات التي يتناولها التعبير وتصدير الكلام .

أليس معنى هذا أن إيمان النفس الباطنة أمر لا يتعلق بالبرهان ؟ وأن المرجع غاية المرجع إنما هو الإيمان ولا شيء غير الإيمان ؟ بل حتى البرهان الاكبر على وجود الله نعود إليه لنسأله ونسمع منه فماذا يقول ؟

يقول لنا : إن العدم معدوم ، فالوجود إذن موجود ، وإنك إذا آمنت بالوجود فلا بد لك من الإيمان به في صفته المثالية لأنك تحتاج إلى سبب لفرض النقص ، ولا تحتاج إلى سبب لفرض الكمال في وجود لا يتطرق إليه العدم .

وما الفرق بين الإيمان بالله ، والإيمان بالوجود في صفته المثالية ؟ هنا ينتهي الدخول في الفروض والشكوك .

وهناك انتهى الإيمان ، بغير دخول في فروض ولا شكوك .. ألا تتلاقى النهايتان. أو لا تضل الفروض والشكوك حيث تضل ، ثم لا يخطو لها قدماً وراء الإيمان ؟

لهذه السنة التي استنها النبي ﷺ في عبادته الروحية كثرت وصاياه بإدمان التفكير في خلق الله ، واجتناب التفكير في ذات الله فقال في الحديث : " تَفَكَّرُوا فِي آلاءِ (نِعَم) اللهِ، ولا تَفَكَّرُوا في اللهِ " [ضعفَّه الذهبي والهيثمي وابن حجر والعجلوني والسخاوي

وغيرهم ، وحسنَّه الألباني] وقال في هذا المعنى : " تفكَّروا في خَلْقِ اللهِ، ولا تفكَّروا في اللهِ فتَهلِكوا " [حديث ضعيف] وقال في حديث قدسي: " كنت كَنْزاً مَخْفِيّاً فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرفَ ، فَخَلَقْتُ الخَلْق فَعُرِفْتُ " أو جاء في رواية : " فَخَلَقْتُ الخَلْقَ ، فَبِي عَرَفُونِي " [موضوع لا أصل له اتفاقاً كما قال الألباني وغيره]

طريق الوصول

وخلاصة هذه الأحاديث وما في معناها : أن التفكير في حقائق الوجود هو طريق الوصول إلى الله ، ولا طريق غيره للحواس ولا للعقل ولا للبديهة : إيمان بالوجود الأبدي في صفته المثالية ، وتفكير في حقائق الوجود كما نراها ونحسها ونعقلها ، وذلك أقصى ما عند العقيدة ، وأقصى ما عند الفلسفة ، وأقصى ما عند العلم إذ يقف العلم عنده حده ، وهذا هو العلم الذي فرضه الإسلام على كل مسلم ومسلمة ، وقال النبي ﷺ في رواية ابن عباس : " أنه أفضل من الصلاة والصيام والحج والجهاد في سبيل الله " لأنه سبيل الوصول إلى الله . (١)

ومن الواجب أن نذكر بعد هذا جميعه أن محمداً ﷺ نبي ، وأن النبي يعلِّم جميع الناس الإيمان ، وتلك سبيل جميع الناس فيما يفتح لهم من أبواب التفكير وأبواب

---

(1) عن ابن عباس قال رسول الله ﷺ : " طَلَبُ العِلْمِ أَفْضَلُ عِنْدَ الله مِنْ الصَّلاَةِ والصِّيَامِ وَالحَجِّ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ الله عَزَّ وَجَلَّ " [هذا الحديث قال علماء الحديث أنه موضوع لا أصل له]
كما أنه ليس هناك أحاديث نبوية بهذا المعنى إنما ذكر العلماء كثيراً من الأقوال التي تحض على التفكير السليم ، وعلى التدبر في عجائب صنع الله ، ومن ذلك قول سليمان الدارانى : " إني أخرج من بيتي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله على فيه نعمة ، ولى فيه عبرة " ، وقال الحسن البصري : " تفكر ساعة خير من قيام ليلة " .
وكان أولى بالعقاد أن يستشهد بالقرآن الكريم في هذا الموضوع كقوله تعالى ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩١] بدلا من الاستشهاد بالأحاديث الموضوعة التي لا يصح الاستشهاد بها بأية حال .

الاعتقاد ، فهم يضلون في حيرة الشكوك والمتناقضات التي يتعمق فيها الفلاسفة والمنطقيون ، ولا يبلغون إلى هداية أقوم وأسلم من هداية الإيمان بالخالق والتفكير في الخَلْق ، فإما هذه الهداية ، وإما الضلال الذي لا هداية وراءه ، وليس لنبي أن يحجب طريق الهداية ويفتح طريق الضلال .

وقد تكلمنا في هذا الفصل عن روح العبادة أو عن فطرة العابد التي توحي إليه " عبادة الروحية " .

أما عبادة الشعائر الظاهرة : فهي عبادة الإسلام كما فرضت على جميع المسلمين : يصلي النبي ﷺ ويصوم ويحج ويؤدي الزكاة على الشريعة التي يتبعها كل مسلم ، وقد يطلب إلى نفسه في هذه العبادات ما ليس يطلبه إلى غيره ، على سُنَّة السماحة والتيسير التي أثرت عنه في كل عمل من أعماله وكل خُلُق من أخلاقه.

" كان رسولُ اللهِ ﷺ أخفَّ الناسِ صلاةً بالناسِ وأطولَ الناسِ صلاةً لنفْسِهِ " [صححه الألباني] وربما قام الليل أكثره أو أقله (1) ولا يطلب من أحد بالتَهَجُّد كما كان يَتَهَجَّد ، أو بالصلاة والصيام كما كان يصلي ويصوم ، بل قد نهى الناس أن يشتدوا في العبادة فيصبحوا كالمُنْبَتِّ " لاَ أَرْضاً قَطَعَ وَلاَ ظَهْراً أَبْقَى " [حديث ضعيف مرسل](2)

لأن الناس جميعاً يتلقون الأمر بالعبادة ، كما يتلقون الأمر بفريضة واجبة ، فهم في حاجة إلى الرفق والتيسير .

أما النفس المطبوعة على العبادة فالصلاة عندها ، مناجاة حب وفرحة لقاء ، ومطاوعة لميل الضمير وميل الجوارح على السواء .

---

(1) يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا* أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل : ١- ٤]

(2) يُقَالُ الحديث لِلْمُفْرِطِ فِي طَلَبِ الشَّيْءِ وَالْمُبَالِغِ فِيهِ حَتَّى رُبَّمَا يُفَوِّتَهُ عَلَى نَفْسِهِ .

وكان محمد ﷺ " كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ (اشتدَّ عليه) أَمْرٌ صَلَّى " [صحيح أبي داود] . كذلك إذا حَزَبَ الأمر نَفْساً ، رجعت إلى حب من تحب ، فخفَّ حملها ، وانفرج كربها ، وأنست بعد وحشة ، واهتدت بعد حيرة .

ومتى وجدت النفس " فرحة اللقاء " في الصلاة ، فلا إجهاد فيها لنفس ولا تضييق فيها لوقت ، بل فيها الترويح عن الجهد ، والتنفيس عن الضيق ، ولا سيما إذا كانت النفس من سعة الأفق بحيث تحيي ما تحيي من ليلها ونهارها في الصلاة والعبادة ثم تؤدي عملها ، وتفكر تفكيرها ، ولا يحسب أحد يعرفها أنها تنقطع بالصلاة والعبادة عن حق من حقوق حياتها ، أو عن حق من حقوق بني الإنسان . (١)

***

(1) فَالَ سَلْمَانُ لأَبِي الدَّرْدَاءِ : " إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ صَدَقَ سَلْمَان " [متفق عليه]